

في ظلال المولد النبوي لنتجدد بتجدد ذكراه



«خُذُوا مَوْلَدَ الرِّسُولِ (ص) مِنْ عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَاسْتَوْلُوا دُونَ مِنْ جَدِيدٍ».

لا نزال في أجواء ذكرى المولد، وهي ذكرى الرسالة لأنَّ رسول الله (ص) بكلِّه رسالة، فقد انطلق قبل أن يبعثه الله رسولاً ليُجسِّد أعلى معاني إنسانية الإنسان في عقله، فكان المتأمل الذي يعيش مع الله في صدقه وأمانته حتى أن كلمة (الصادق الأمين) تحوَّلت إلى اسم له، وكان الإنسان الذي يلتقي عليه الجميع لأنَّه وحده الذي لم يجدوا له أي خطأ في الفكر وأي خطأ في الكلمة، وأي خطأ في السلوك وفي العلاقات.

فلم يذكر أحد في تأريخه، وتأريخه قبل البعثة أربعون سنة، أيَّ عيب له أو نقصاً أو انحرافاً، ومن هنا ففي الوقت الذي قال الله له: (مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) (الشورى/ 52)، كان يعيش روحية الإيمان وروحية الكتاب، لذلك اختاره الله نبياً بعد أن كانت النبوة روحية في عقله وفي سلوكه، فكان المعصوم قبل النبوة كما هو المعصوم بعد النبوة.

الرسول والرسالة:

ولذلك نستطيع أن نقول أنَّه (ص) جسَّد الخطوط العامة للرسالة في معنى الإنسان في الرسالة قبل أن يبعثه الله رسولاً.

فنحن لا نستطيع أن نفصل بين رسول الله (ص) وبين رسالته، هو الرسالة الناطقة، فيما الكتاب هو الرسالة الصامتة، ونحن نعرف أن لابدَّ للصمت من حيوية نطق لتجلِّي معانيه، وكان رسول الله (ص) يجلِّي معاني القرآن في أخلاقه، فكانت أخلاقه كما قالت إحدى زوجاته (أخلاق القرآن) وكان يجسِّد القرآن في

روحانيته، فكانت روحانيته القرآنية في كلِّ خصائص الروحانية.

وعندما حدثنا اﷻ تعالى عنه، فقد حدثنا عن رسالته، وذلك في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ (أَي وَفَّرُوهُ) وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف/ 157)، فعندما نقرأ هذه الآية فإننا نتحسس أنَّ حركة الرسالة كانت تجري في حركته، فهو بالرغم من أنَّه نبيُّ أُمِّيٍّ (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ لَارْتَابَ الْمُضْطَلُّونَ) (العنكبوت/ 48)، (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) (الشورى/ 52)، ولكنه النبيُّ الذي لم تكن أُمِّيَّته جهلاً، ولكنه إذا لم يكن يمارس القراءة والكتابة فقد أعطى للقراءة والكتابة معيناً لا ينضب على مدى التاريخ يكتبه الناس منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً، ولا زال الناس بحاجة إلى أن يكتبوا الكثير، ويقرأ الناس منه ما بلَّغه من كتاب وما قاله من سنة، ولا يزال الناس يقرأونه بحثاً وتحليلاً وفكراً، ويبقى الرسول الأُمِّيُّ يعطي للعالم أعلى أنواع الثقافة ويحرِّك فيه أعظم مواقع الفكر بحيث يمتد فكره حتى يرث اﷻ الأرض ومن عليها، لأنَّ فكره وحي من اﷻ وحي يمثل الامتداد في كلِّ مواقع الإنسان في الحياة لأنَّه الوحي الذي ينطلق من خالق الإنسان (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك/ 14)، وهكذا نجد أنَّ اﷻ ركَّز في هذه الآية على الاتِّباع (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) فَسَأَلْتُ بَنِيَّ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَنِي وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/ 156)، فإﷻ يكتب رحمته لمن يتَّبعه لا لمن ينتمي إليه انتماء الكلمة، ولا لمن ينطلق معه بعيداً عن حالة الاتِّباع (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) هذا العنوان الكبير هو للمسلمين، أمَّا في موقع الدعوة فإنَّه يتحدث عن اتِّباع القرآن (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

الانتماء إلى الرِّسالة:

وعلى هذا الأساس نعرف أنَّ المسألة الإسلامية هي في انتمائنا إليه، وانتمائنا إلى رسالته وهي قضية اتِّباع لا قضية إنتماء، (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عََلَمًا شَرِيعَةً مِنَ الْأُمَمِ فَاتَّبِعْهَا) (الجاثية/ 18)، شريعة تختزن الفكر في جوانب العقيدة، وتختزن القانون في جوانب الشريعة، وتختزن كلَّ المفاهيم التي تنصل بالكون وبالإنسان وبالحياة، اتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون.

فكلَّ ما عدا الإسلام هوى، وكلَّ من يدعو إلى غير نهج الإسلام عقيدة وشريعة وأسلوباً ومنهجاً فهو يتبع الهوى، (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (الجاثية/ 18)، لا يعلمون عمق القضايا ولا امتداداتها، (إِنَّهُمْ لَمِنْ أَجْلٍ مَالِهِمْ) وهب أنَّهم يملكون الجاه فتتبعهم لتأخذ بعضاً من جاههم، هب أنَّهم يملكون السلطة فتتبعهم تحت تأثير سلطتهم، هب أنَّهم يعطونك بعض لذات الحياة وبعض شهواتها، ولكنهم ماذا يملكون؟ إنَّهم - إذا وقفت غداً بين يدي اﷻ - وأراد اﷻ أن يصيبك ببلاء، أو أن يصيبك بضرٍّ، لن يغنوا عنك من اﷻ شيئاً، لن ينفعوك قطُّ، فإﷻ تعالى يملك أمرك، ويملك ما تملك ويملك من حولك، ويملك الحياة كلها.

فلو أراد اﷻ سبحانه وتعالى أن يجعل الليل عليكم سرمداً من إله غير اﷻ يأتاكم بضياء، ولو أنَّ اﷻ أراد أن يجعل النهار عليكم سرمداً من إله غير اﷻ يأتكم بليل تسكنون فيه، ولو أنَّ اﷻ أراد أن يجعل ماءكم غوراً فمن يأتكم بماء مَعِين، ولو أنَّ اﷻ أمسك عنكم هذا الهواء الذين تتنفَّسون، أمسك عنكم نبات الأرض فجعل الأرض لا تنبت، من الذي يخرج ذلك، هل هؤلاء؟ إنَّهم لن يغنوا عنكم من اﷻ شيئاً.

الأسلوب القرآني في التعامل:

وهذا هو أسلوب قرآني في التعامل، فإذا واجهك الناس بمظاهر العظمة، فتذكّر عظمة الله، وقارن بين عظمة الإنسان وعظمة الله... فسترى أن الإنسان لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً (إِنَّ السَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (الحج/ 73)، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإن الظالمين أنفسهم بالفكر، والظالمين بالفسق وبالانحراف، والظالمين أنفسهم بالبغي والعدوان بعضهم أولياء بعض.. يساعد بعضهم بعضاً.. ويتبع بعضهم بعضاً، فما دخلك بالظالمين، (وَالَّذِينَ الظَّالِمِينَ يَعْضُهُمْ أَوْْلِيَاءُ يُعَاضُّهُمْ) (وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ الظَّالِمِينَ) (البقرة/ 257)، (هذا بصائر للناس) (الجاثية/ 20).

البصيرة والوعي:

فهذا الحديث وهذا الخط والاتجاه بصائر للناس تبصّر عقولهم بحقائق الأشياء عندما يأتي الآخرون ليربطوهم بسطح الأشياء (فَإِنْ زَهَّاهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج/ 46)، المهم أن يكون قلبك مبصراً، فإذا كنت أعمى القلب مفتوح العينين فما قيمة عينيك عندما لا يتدخل قلبك ليوحّيهما إلى معنى ما ترى وإلى سرّ ما تبصر.

(هَذَا بِصَائِرٍ لِلنَّاسِ) (الجاثية/ 20)، فاستبصروا وتبصّروا به، (وهديّ) فاهتدوا به (ورحمة لِقَوْمٍ يوقنون) (الجاثية/ 20)، ثم يقول الله لنا: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ) (الجاثية/ 21)، أظنّ أنك تعصي الله في الصباح وتعميه في المساء ثم تريد منه أن يدخلك جنته؟ قالها عليّ (ع) لأصحابه وإذا كنتم من أصحابه فاستمعوا له بوعي "أفبمثل هذه الأعمال تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، هيهات لا يخدع الله عن جنته" (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجاثية/ 21)، فلا يمكن أن يساوي الله سبحانه وتعالى بين من يعيش عمره في الانحراف وفي المعصية وبين من يعيش عمره في الإيمان والعمل الصالح (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)، (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَئِنَّ جَزَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (الجاثية/ 22).

لقد أقام الله السماوات والأرض على الحق، فالسماوات والأرض تتحرّكان في موسيقى الحق التي نسمعها بعقولنا قبل أن نسمعها بأذاننا، فلا تكن نشازاً عندما تنسجم الموسيقى الإلهية بالحق، لا تكن نشازاً يخرّب الأجواء الإلهية، كن الإنسان الذي يتحرّك عقله بالحق وقلبه بالحق وحياته بالحق حتى تنسجم مع الحق الذي ينهمر نوراً من الشمس، وحتى تنسجم مع الحق الذي ينهمر مطراً من السماء، وحتى تنسجم مع الحق في كلّ ما أودع الله من القوانين في سنّته في الكون، ولقد خلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كلّ نفس بما كسبت.. هذا هو حق العدل، (وَلَئِنَّ جَزَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، لأنّ الله لا يمكن أن يظلم أحداً لأنّ من يحتاج للظلم هو الضعيف، والله هو القوي.

معاني وآفاق المولد:

مولده (ص) يمثل حركتنا في اتجاهه، ويمثل حركتنا في مسيرته، ويمثل انفتاحنا عليه، على عقل رسول الله (ص) المشرق بالهدى، وعلى قلبه المشرق بكل المحبة والعاطفة والحنان عن الناس (لقد دجاءكم رسول من أن زفوسكم عزيز علايه ما عندكم حرير علايكم بالهمؤمين رءوف رحيم) (التوبة / 128).

فلننطلق معه، ولنعيش آفاقه، ولنجدد بتجدد ذكراه، ولنركز إسلامنا في الحياة كلها، وفي الواقع كله. ولنبن في كل بيت من بيوتنا بيتاً للإسلام (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والجار) (التحریم / 6)، فإذا أردتم أن تعيشوا مع أولادكم ومع عيالكم في الجنة (جندسات عدن يدخلونها ومن صلاح من آبائهم وأزواجهم وذريتهم والملكاة يدخلون علايهم من كل باب * سلام علايكم بما صبرتم فنعيم عقبي الدار) (الرعد / 23-24)، بما صبرتم على طاعة الله، وبما صبرتم على تجنب معصيته وعلى بلائه، فالمهم أن يكون أمرك صالحاً لتلتقي بهم هناك، وأن تكون زوجتك صالحة لتلتقي بها هناك، وأن تكون ذريتك صالحة لتلتقي بها هناك، لأن القيامة تقطع العلاقات إلا علاقات الإيمان (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (الزخرف / 67)، إن لكم صداقاتكم في الدنيا.. ولكن هل تبقى الصداقات؟!.. صداقة واحدة هي التي ستبقى، وهي الصداقة القائمة على التقوى، والتي تنطلق من الحب في الله والبغض في الله، والصداقة التي تنطلق من موالاتك لأوليائك ومن معاداتك لأعداء الله (ليس بأمانينكم ولا أمانينكم من موالاتكم لأوليائك ومن معاداتكم لأعداء الله) (النساء / 123)، تقولون إننا مسلمون وكل يحمل جواز سفر إلى الجنة بمجرد انتمائه (ليس بأمانينكم) فلا تعيشوا في الأمانين (ولا أمانينكم) (وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) (البقرة / 111)، فإلا لا قرابة له بالمسلمين ولا باليهود ولا بالنصارى (مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا).

إنه خط عناصر الشخصية الفردية وعناصر الشخصية الاجتماعية (والعصم * إنسان لفي خسر) (العصر / 1-2)، فالكل تحت الغربال، ولكن من هم فوق الغربال (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (العصر / 3)، وهذا عمق شخصية الفرد الذي يعيش البلاء (وتواصوا بالحق) وهذا عمق المجتمع المسلم وهو أن يوصي بعضكم بعضاً بالحق، (وتواصوا بالصبر) (العصر / 3)، أن يوصي بعضكم بعضاً بالصبر إذا كلفكم الحق مشقة أو تضحية، وفي نهاية المطاف (وتواصوا بالمرحمة) (البلد / 17)، بأن تتواصوا بأن يرحم بعضكم بعضاً.

هذا هو محمد (ص) في قرآنه وفي مولده، فخذوا المولد من عقله ومن قلبه ومن روحه ومن أخلاقه، فستجدون أن كل واحد منكم يولد من جديد مسلماً كما هو الإسلام في ذكرى ولادة رسول الله (ص).

فنحن ولدنا منذ زمن ولكن أن نولد مسلمين محمديين.. فهذه هي الولادة التي يمكن أن تجعلنا نحس إسلامنا بحق، ونحس حياتنا في الضوء المنطلق من الرسالة.. ومن قلب صاحب الرسالة (ومما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) (الأنبياء / 107)، (وإنك لعلى خلق عظيم) (القلم / 4).